محاضرة رقم (01)

البلاغة (المفهوم والنشأة) :

توطئة :

تتحدّد طبيعة هذا المقياس بمجموعة من العناصر التي تهيكل مفهومه في هذا المستوى الدراسي، وكذا التخصص المدرّس فيه، ولأنّ هذا المقياس قد سبق للطالب أخذه في مستوى السنة الأولى ليسانس، فمدخله سيكون محاضرةمؤسّسة وكذلك مراجعة لما أنف الإطلاع عليه، لذلك ستتضمن هذه المحاضرة عنصرين اثنين، الأول في مفهوم البلاغة؛ تعريفها لغة واصطلاحا، وعناصرها أو علومها، والثاني في نشأتها قديما وتطورها تباعا لما يستجدّ في بيئتها، وهذا ما سيأتي تفصيله في مضمون المحاضرة .

أولا – مفهوم البلاغة :

قبل الخوض فيأي علم وجب البدء بتعريفه لغة واصطلاحا، ثمّ ذكر عناصره ومكوناته، وذلك ما سيأتي في العناصر الآتية :

1 – البلاغة لغة :

البلاغة لغة من بَلَغَ الشَيْءُ يَبْلُغُ بُلُوغًا وصَلَ وانْتَهَى وأَبْلَغَهُ هو إيصالُه وبَلَّغَهُ تَبْلِيغًا، وتَبَلَّغَ بالشيء وصل إلى مراده[والبَلاَغُ والإبْلاَغُ [...] الإيصال، وكذلك التبليغ، والاسم منه البلاغ [...]والمبالغة أن تَبْلُغَ في الأمر جهدك [...]والبلاغة الفصاحة، والبَلْغُ

البوَالبِلِيْغُ من الرجال، ورجل بـَـلِيغٌ بَـلْـغٌ جَـلْن الكلام فصيحه، يـَـبـْـلُـغُ بعبارة لسانه كـُـنـْـهَ ما في قلبه، والجمع بـُـلَـغَـاء، وقد بـَـلُـغَ بالضم بلاغة أي صار بـَـلِيغًا[1] .

والبلاغة أيضا من قولهم بلغت الغاية إذا انتهت إليها وبلَّغْتُـهَـا غيري، ومـَـبـْـلَـغُ الشيء منتهاه، والمبالغة في الشيء الانتهاء إلى غايته، فسميت البلاغة بلاغة لأنها تنتهي بالمعنى إلى قلب السامع فيفهمه، وسميت البـُـلْـغَـةَ[*] لأنك تتبلغ بها فتنتهي بك إلى ما فوقها، وهي البلاغ أيضا، ويقال الدنيا بلاغ لأنها تؤديك إلى الآخرة، وجاء البلاغ في القرآن كذلك بمعنى التبليغ [2] .

2 – البلاغة اصطلاحا :

قيل في تعريف البلاغة : هي تأدية المعنى الجليل واضحا بعبارة صحيحة فصيحة لها في النفس أثر خلاّب، مع مناسبة كل كلام للموطن الذي يقال فيه وللأشخاص الذين يخاطبون [3]، وقال أعرابي في تعريفها : البلاغة هي الاقتر ّب من البعيد والتباعد من الكلفة والدلالة بقليل على كثير » [4]، وذلك يعني فهم المعاني البعيدة بأوضح الألفاظ وأدلّها،

---

[1] - ابن منظور، لسان العرب، دار الصادر، بيروت، لبنان، ط1(1410هـ-1990م) – ط2 (1412هـ-1992م) - ط3 (1414هـ-1994م)، مادة (بلغ)، مج 8، ص 419، 420 .

[*] البـُـلغة ما يتبـّـلغ به من العيش، وزاد الأزهري :ولا فضل فيه، وتبلّغ بكذا أي اكتفى به . أنظر : ابن منظور، لسان العرب، مادة (بلغ)، مج08، ص421.

[2] - أنظر : أبو هلال العسكري، الصناعتين- الكتابة والشعر -، حقّقه وضبط نصه مفيد قميحة، دار الكتيب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1401هـ- 1981م، ص 15.

[3] - أنظر : علي الجارم ومصطفى أمين، البلاغة الواضحة – البيان والمعاني والبديع للمدارس الثانوية، دار المعارف، القاهرة، مصر، دط، 1999م، ص 08 .

[4] -السيّد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ضبط وتدقيق وتوثيق يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان، دط، دت، ص 40 (هامش الصفحة) .

البعد عن التكلّف، واختصار الألفاظ دون اختصار المعاني، أي الدلالة باللفظ القليل عن المعاني الكثيرة .

« وقال عبد الحميد بن يحي : البلاغة تقرير المعنى في الأفهام من أقرب وجوه الكلام، وقال ابن المعتز :البلاغة البلوغ إلى المعنى ولم يطل سفر الكلام، وقال العتّابي :البلاغة مدّ الكلام بمعانيه إذا قصر وحسن التأليف إذا طال ... » [5]، والملاحظ أن تعريف عبد الحميد بن يحي وتعريف ابن المعتزّ يصبان في معنى واحدمقارب لتعريف العتّابي، إذ هما معا يدلان على إيصال المعنى وترسيخه في الذهن ولو بقليل اللفظ، ويضيف تعريف العتّابي لهما حسن التأليف ودقّة السبك والتحام أجزاء الكلام .

وقال عبد الله ابن المقفّع في تعريف للبلاغة : « اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة . فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جوابا، ومنها ما يكون ابتداء، ومنها ما يكون شعرا، ومنها ما يكون سجعا وخطبا، ومنها ما يكون رسائل . فعامة ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها، والإشارة إلى المعنى، والإيجاز، هو البلاغة ... » [6].

ووصف الجاحظ قوله هذاأنّه من أفضل التعاريف وأجمعها التي نسبت إلى البلاغة، حيثأورد قول إسحاق بن حسّان بن قوهّي : لم يفسّر البلاغة تفسير ابن المقفّع أحد قط حين سئل ما البلاغة ؟ »، [7]لأنّه لم يقصرها على شكل واحد أو وجه فريد للكلام، وإنّما

---

[5] -السيّد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ضبط وتدقيق وتوثيق يوسف الصميلي، ص 40 (هامش الصفحة) .

[6] - الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط7، 1418هـ – 1998م، 115/1، 116 .

[7] - نفسه، 115/1 .

دّ دعوجوهها وأشكالها، فمتى ما دلّ الكلام بلفظه ووضح معناه وطربت له الأذن واستقرّ في الذهن والقلب كانت البلاغة في ذلك المحل .

3 – علومها :

والبلاغة علم أصيل عند العرب، يضرب جذوره في أعماق تاريخهم، وذكر كلمة بلاغة يرتبط في الأذهان بعلومها الثلاثة المعروفة عندنا الآن علم المعاني، علم البيان، علم البديع [8]، وما يعلّل ذلك قول القزويني في كتابه الإيضاح : « أن البلاغة في الكلام ترجع إلى الاحتراز عن الخطأ في تأدية المعنى المراد وهذا هو علم المعاني، كما ترجع إلى الاحتراز عن التعقيد المعنوي وهذا هو علم البيان، وأخيرا تهدف إلى تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال وفصاحته، وهذا هو علم البديع» [9] .

أي أنّ البلاغة ليست زاوية واحدة في النظر إلى الكلامولكنّهزوايا عدّة صنّفها أصحاب الاختصاص إلى ثلاث زوايا، كلّ منها تختصّ بجانب معيّن؛ الأولى بالتركيب أو الإسناد، والثانية بتأدية المعاني بطرق مختلفة، والثالثة بوجه التأدية وحسن اللفظ وجماله، فكانت علومها معان وبيان وبديع .

2 – نشأة البلاغة :

البلاغة في بداية وجودها ونشأتها عرفت بالبيان، فكان يطلق ويدلّ عليها، وهذا ما نجده في كتب المتقدّمين من علمائها من أمثال الجاحظ والجرجاني، ثم صار البيان محورا

---

[8] - عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية - علم المعاني ، البيان ، البديع -، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ص 201 .

[9] - الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، قدم له وبوبه وشرحه علي بوملحم، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت لبنان، الطبعة الأخيرة، 2000، ص5

من محاورها بعدما انقسمت وتفرعت إلى فروع ثلاثة هي البيان، البديع والمعاني، وفي هذه النقطة بالذات قد نطرح سؤالا مفاده كيف نشأت البلاغة وما كانت وجوه تطورها عند العرب، إن في المصطلح أو في المفهوم ؟

قد يتبادر إلى الذهن أن العلوم الثلاثة للبلاغة نشأ كل واحد منها مستقلا عن الآخر بمباحثه ونظرياته، لكن الأمر ليس كذلك، إنما الواقع أن البلاغة العربية مرت بتاريخ طويل من التطور حتى انتهت إلى ما هي عليه الآن، وأن مباحث علومها كانت مختلطة بعضها ببعض منذ بداية الحديث عنها في كتب الأوائل من علماء العربية [10] .

وقد أخذت الملاحظات [البيانية] أي البلاغية تظهر عند العرب منذ العصر الجاهلي، ثم مضت هذه الملاحظات تنمو بعد مجيء الإسلام لأسباب شتى، منها تحضر العرب واستقرارهم في المدن والأقطار المفتوحة، ونهضتهم العقلية، ثم الجدل الشديد الذي قام بين الفرق الدينية المختلفة في شؤون العقيدة والسياسة، فكان طبيعيا لذلك كله أن تكثر الملاحظات البيانية والنقدية، تلك التي نلتقي بها في تراجم بعض الجاهليين والإسلاميين في كتاب مثل كتاب الأغاني [11] .

ولا ننسى أن البلاغة أو الملاحظات البلاغية القديمة كانت مرتبطة بالنقد في أول عهده، حيث كان الشعراء القدامى يحكمون على الشعر، ويقيِّمون أصحابه من خلال النظر في أمور تتعلق بقضايا هي من موضوعات علم البلاغة، كقضية اللفظ والمعنى وأفضلية الواحد منهما عن الآخر، وفي ذلك يرد نصا - يتضمن الفكرة ذاتها - بخصوص النقد القديم حيث يقول صاحبه :« والنقد لا ينفصل أبدا عن البلاغة شقيقته الكبرى، فهو في جزء منه بلاغة محدودة، وفي جزء آخر بلاغة موسعة. لقد نبعا من أصل واحد، وسارا معا شوطا

---

[10] - عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية - علم المعاني ، البيان ، البديع، ص 201 .

[11] - نفسه، ص 201، 202 .

بعيدا في المراحل الأولى في تاريخهما، ثم أخذ كل منهم بحكم وظيفته يشق لنفسه طريقا خاصة، ويكتسب سمات وصفات معينة انتهت بهما إلى الانفصال كعلمين مستقلين،ولكن هذا الانفصال والاستقلال لا يعني الانقطاع التام بينهما ،لأن النقد كان ولا يزال يقوم في بنائه على أسس بلاغية» [12] .

وبانتقالنا إلى العصر العباسي فإننا ننتقل من عصر الملاحظات الشفهية والفورية إلى عصر التدوين، فهنا بدأت بعض المحاولات الأولى لتدوين هذه الملاحظات البلاغية وتسجيلها، كما هو الشأن في كتب الجاحظ وبخاصة كتاب "البيان والتبيين"، وقد ساهمت في هذه النقلة الجديدة عوامل عدة منها تطور الشعر والنثر بتأثير الحضارة العباسية، ورقي الحياة العقلية فيها [13] .

وقد كان أبرز من مثل هذا الرقي طائفتين، شكلت كل منهما مدرسة بلاغية أسهمت إلى حد كبير في التأسيس للبلاغة العربية أولا ثم اغنائها بمختلف الأفكار التي كانت خير معين لها فيما بعد ثانيا وقد تركتا أثرا بارزا في تاريخ البلاغة.

وكانت هاتين المدرستين هما: المدرسة الأدبية ومدرسة المتكلمين (المدرسة الفلسفية)، وأمرهما قديم - كما هو معروف - فهو ليس وليد عصور متأخرة، وأبو هلال العسكري نبه إليهما في دراسة البلاغة [14] .

---

[12] - عبد العزيز عتيق، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، 1406هـ- 1986م، ص11.

[13] - عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية - علم المعاني ، البيان ، البديع، ص 202 .

[14] - يوسف أبو العدوس، البلاغة والأسلوبية، الأهلية للنشر والتوزيع، الأردن، الطبعة العربية الأولى، 1999، ص 23.

ويذهب بعض النقاد إلى أن علماء الكلام وخاصة المعتزلة كانوا أكثر أثر من غيرهم[في نشأة البلاغة] لأنهم هم الذين وضعوا أسس علم البلاغة [15] « إذ هم المحتاجين إليها في الدعوة وا ٍقامة الحجج، فوضع منهم بشر بن المعتمر (ت210هـ) صحيفته الخالدة ثم جاء بعده الجاحظ وهو من هو في البلاغة وفنونها» [16].

ولكن هذا لا يعني أن الاتجاه الكلامي كان هو المسيطر بل لاحظ النقاد أن عوامل أخرى غير[الفلسفة والمنطق وعلم الكلام] قد أثرت في البلاغة العربية ، وصبغت أبحاثها بصبغة أدبية، من مثل لقرآن الكريم والكتاب والشعر [17] ، ذلك أنها اعتمدت في نقد النصوص الشعرية غالبا من حيث عدّها الشقيقة الكبرى للنقد كما ذكرنا، ويبقى كتاب الله أكثر البواعث على التأليف في جل الدراسات خاصة اللغوية منها ، كما نجده في النحو وفقه اللغة وعلم الأصوات والدلالة.

---

[15] - عبد القادر حسين، أثر النحاة في البحث البلاغي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 1998، ص 31 .

[16] - أحمد أمين، النقد الأدبي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، 1387هـ-1967م، ص 473 .

[17] - يوسف أبو العدوس، البلاغة والأسلوبية، ص 23 .